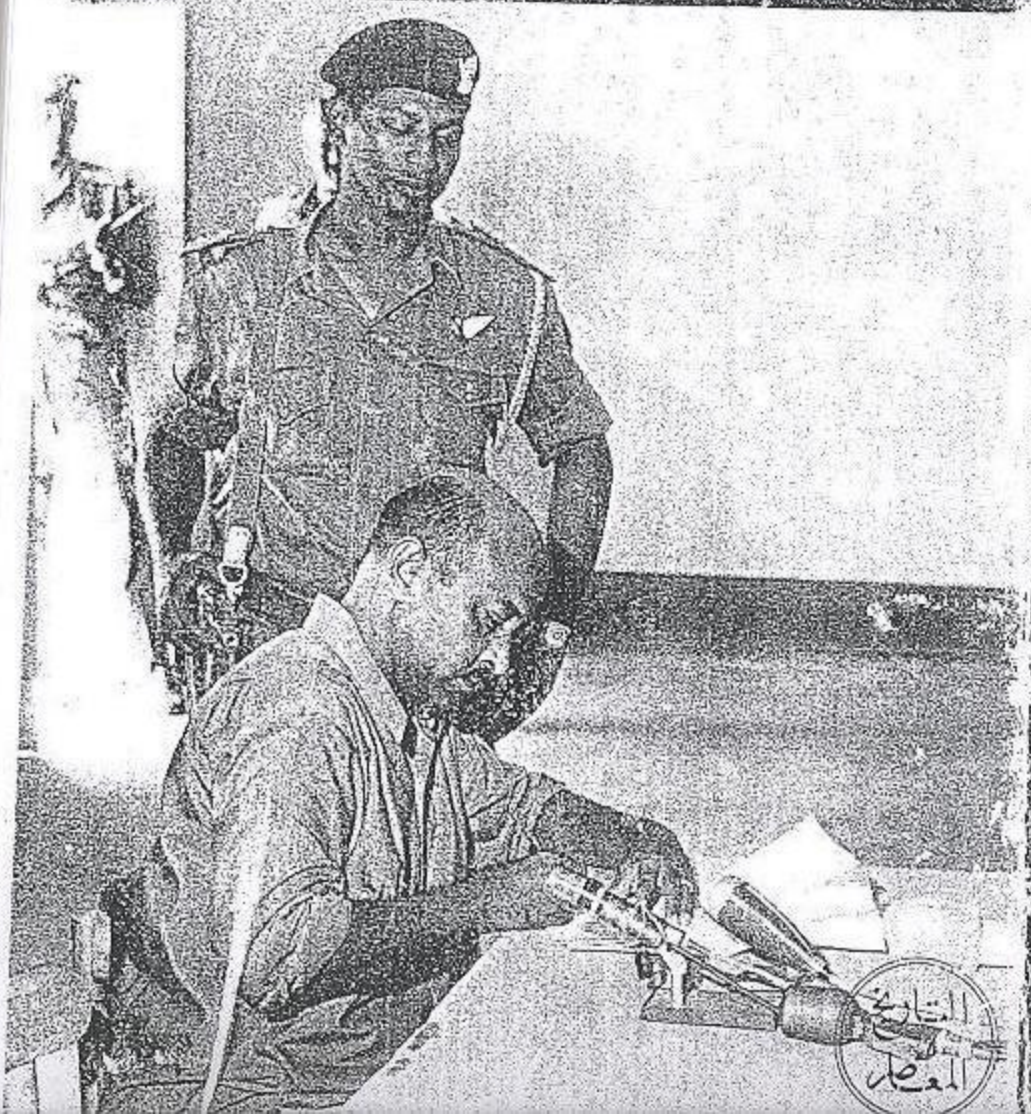


فؤاد مطر

الحزب الشيوعي السوداني نخروه أم انتحر؟



المقدمة

ان اي تقييم موضوعي لتجربة السودان الديموية الاخيرة - او بالاحرى لتجربة العرب المرة في السودان - يتطلب دراسة مستفيضة لكل عناصر الازمة التي عاشها المجتمع السوداني والتي تعيشها الدولة اليوم في السودان . واذا كان الوقت لم يحن لمثل هكذا دراسة تاريخية مجردة ، فهذا لا يعني مطلقا ان تبقى هذه التجربة المأساوية من دون تسجيل دقيق تفصيلي لها ومن دون رأي فوري متأثر او بالاحرى منفعل بها .

كما ان احداث السودان الديموية - التي ذهب ضحيتها اعرق المناضلين الحزبيين التقدميين عبد الخالق محجوب ، واحد اعرق المنظمين النقابيين الشفيح احمد الشيخ - اوجدت ردود فعل مهمة ، لا على المستويين الوطني والقومي فحسب ، بل على المستويات العالمية ايضا . وهذا لا يعود الى المركز المميز الذي تحتله النقابات العمالية والفلاحية والحزب الشيوعي في الاوساط العالمية التقدمية فحسب ، بل الى ان الحزب الشيوعي السوداني كان اكثر الاحزاب الشيوعية العربية قدرة على استيعاب الخصائص الذاتية لوضع النضال العربي ، ومن اكثر الاحزاب العربية مساهمة في توضيح معالم هذا النضال ومراحله . هذا الرصيد من العطاء على المستويين السوداني الشعبي والعربي الثوري تكون على اثر التصاق الحزب الشيوعي والنقابات العمالية بمعاناة الجماهير التصاقا صادقا . ومن هنا كان عبد الخالق محجوب ورفاقه يعملون على التعبير الاصيل عن هذه المعاناة بدلا من النطق باسم الجماهير من موقع الانسلاخ عنها كما حصل لعدد من الاحزاب الشيوعية العربية في عدد من الدول العربية . من واقع هذا التفاعل الحي اليومي الدؤوب مع مشاكل الجماهير السودانية واحاسيسها ساهم الحزب الشيوعي السوداني في الممارك التي خاضها الشعب لتأمين الحقوق الديمقراطية - مثل ثورة ٢١ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٤ ، وحملات التوعية العميقة التي قام بها بعد هزيمة العرب في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، والتصديقات للافكار والمسالك المتخلفة التي كثيرا ما اعاققت مسيرة تكامل المؤسسات الديمقراطية والاشتراكية في السودان .

لهذه الاسباب بقيت انظار الامة العربية مشدودة الى احداث السودان . ويوم شنق عبد الخالق محجوب كنت في الجزائر بدعوة من

الاتحاد العام لطلبة فلسطين وكننت في الفندق نفسه الذي نزلنا فيه اخر
ايام ندوة الاثتراكيين العرب التي عقدت في الجزائر في ايار (مايو)
١٩٦٧ مع عبد الخالق محجوب الذي كان من المع الساهمين في هذه
الندوة . نزل الخير كالمصاعقة على الطلاب وعلينا جميعا . فبعد عملية
الانقضاض التي قامت بها السلطة الاردنية على المقاومة الفلسطينية
في الاردن ، بدت الهجمة الشرسة على قادة اليسار في السودان وكان
العرب فقدوا البوصلة التي تضبط مسيرتهم وتحركاتهم فلم يعودوا
ملتزمين بمقاييس محددة للتصرف أو للتفكير . فزاد هذا في حالة الضياع
والتمزق ... وفي بعض الاحيان في القرف والخجل . لكن الطلاب
وغيرهم من ابناء الجيل الجديد العربي ادركوا بحسهم المستقبلي انه
لا بد لهم من اتخاذ المواقف الواضحة والمدروسة ، ومن هنا جاء
بيان الاتحاد العام لطلبة فلسطين قاسيا في ادانته لما جرى في السودان
وفي الاردن ، ولكنه معلن هذه المساواة مثبت ان التاريخ سيكون صارما
في احكامه على هذه الامة اذا بقيت كل قطاعاتها غائبة عن الموقف
ومتردة في اعلانه وتأكيدة .

في هذا الظرف يجيء كتاب فؤاد مطر ليجمع بين عناصر ثلاثة
أساسية : التسجيل للأحداث ، والتوثيق للتحاليل ، والرأي الذي يتضح
منه ان صاحبه متأثر بالأحداث التي يقوم بتسجيلها . ففؤاد مطر لم
يكتب كصحافي مجتهد فحسب ، بل ككتاب عربي ملتزم . فقد احاط
بالأحداث السودانية وترابطها على المستوى العربي فمهل على
تسجيلها بدقة . ثم اضاف بعدا مهما يلمسه القارئ في الصفحات
المقبلة ، هو انه تأثر بالأحداث فأجاز لتمزيقه ومعاناته وولاءاته ان
تنساب الى أحرف هذا الكتاب فتكسبها وهج القلق الذي يعتمر وجدان
الامة وشبابها .

والتاريخ لم يكن يوما مجرد سرد وقائع او تسجيل حقائق ، بل
كان اخضاع هذه الوقائع والحقائق لمقتضيات القوانين التي تربطها
بعضها ببعض ، ولفهم المؤرخ لهذه القوانين ونظرته اليها . ان النظرة
الكلاسيكية للموضوعية التاريخية على انها انسلاخ عن الالتزام او حتى
الانفعال ، نظرة تتحكم في الذين يكتبون هوامش للتاريخ وليس الذين
يكتبون التاريخ . صحيح ان بعض الانفعالات او اساليب التعبير عن
الالتزام قد لا تتمكن من مواجهة امتحان الاستمرار او الديمومة ، فهذا
يرجع الى نقص في الالتزام او السى جزئية الانفعال . لكن يبقى ضروريا
ان يلازم التسجيل رأي نابغ من حرارة الالتصاق بالحدث لان هذا الرأي
يوصل السى القارئ مناخ الأحداث كما ان التسجيل يوصل الأحداث

والوقائع نفسها . يبقى أن يكون التمازج بين الرأي والتسجيل في
المستوى الذي يوحي الثقة من القارئ . في هذا المضمار يمكنني القول
ان فؤاد مطر وفق في هذا المجال ، مع العلم بأن هذا لا يعني موافقة على
كل ما ورد من آراء او استنتاجات . لكن هذه الموافقة لا يمكن ان
تحصل بشكل فوري ولا يجوز ان تحصل لان دور الكاتب الصحافي ان
يكون حافظا للاستزادة او ان يلقي اضواء جديدة على الحدث . وفي
كلا الحالتين حقق فؤاد مطر نجاحا كبيرا .

وإذا كان انطباعي العام ان درجة التمازج بين الرأي والتسجيل
في الكتاب كانت موفقة أجمالا ، الا ان هذا لا يعني ان مستوى التوفيق
لازم الكتاب كله بالدرجة نفسها . فمثلا اعتقد ان فؤاد مطر ذهب في
المقارنة بين محاولة الانقلاب الذي أعد له الحزب القومي الاجتماعي
في لبنان عام ١٩٦٢ ومحاولة انقلاب الضباط اليساريين في السودان
الى حدود ابعدها ما تسمح له بها الحقائق الأساسية ، كما انني لا اتفق
معه في ان فاروق ابو عيسى وزملاءه شكوا « جناحا » في الحزب
الشيوعي ، لان هذا يضمن عليهم اهمية تنظيمية لم تكن واردة كما
اثبتت الأحداث . ولعل جعفر التمبري كان محقا عندما أكد ان مشاركتهم
في الحكم كانت بمثابة مشاركة فردية وليست تمثيلا لـ « جناح » او حتى
لـ « تيار » . وهناك عدد من النقاط الفرعية أشعر بأنني اختلف الكاتب
فيها ولكنني لست في موقع المعرفة الكافية التي تجيز لي ان احسمها .

لكن ما ستورده الصفحات المقبلة للقارئ هو تفاصيل قصة
مأساوية في بلد عرف ابناؤه بالديموقراطية المغوية ويكونهم ابعده ما
يكونون عن العنف الدموي واقرب ما يمكن للناس ان تكون من رغبة في
الحوار واستساعة لتقاليد الديموقراطية الحقبة ، وقد اتيح لي في
الجامعة وبعدها التعرف عن كتيب الى عدد كبير من المثقفين السودانيين
ووجدت فيهم ، كما وجد غيري ، هذه النزعة القوية لتجاوز كل
المعوقات المراسيمية والكتبية والطبقية واصراراً على استبقاء تلقائية
في الالتحام والتجاوب . ولعل صدمة العرب بأحداث السودان هي أنها
حدثت في السودان نفسه .

يبقى أن أسجل ثلاث ملاحظات اعتبرها أساسية قبل ان أترك
المجال للقارئ لان يعيش أحداث السودان الاليمة وان يستخلص منها
الدروس والعبر ، والتي من شأنها ان تساهم في الحيلولة دون تكرارها ،
لا في السودان فحسب بل في ارجاء الوطن العربي ايضا . اقول الأحداث
الاليمة لان التوجه لا بد ان يكون نحو هذه السمة للأحداث ، لان كونها
أحداثا مثيرة قد لا يخفي السى حد ما مرارة وقائعها ومأساويتها .

ما هي الملاحظات الثلاث :

أولاً : أن واجب وضرورة استنكار الإعدامات لقادة الحركة النقابية والشيوعية في السودان وما سبقها من « محاكمات » صورية واعتباطية وامتهان فاضح للحق في الدفاع لا بد أن يلازمها تنديد بان يلجأ الشيوعيون أو اليساريون إلى الأساليب الانتقالية العسكرية في سعيهم إلى استنلام السلطة ، أو تأمين مواقع توجبه وسلطة كافية لتحقيق حد أدنى من برامجهم المرحلية . فاليسار العربي في شتى قطاعاته مطالب بان يفعل في الجماهير ، بوجه حيويته ، ينظمها في اطرار سليمة قادرة على النضال من أجل مصالحها الأساسية الوطنية والاجتماعية . هذه المهمات التاريخية تعني ان الثورات الجذرية لا تسلق ولا تتحقق لجرد انقلابات فوقية ولا تختصر الطرق نحو السلطة بالجوء إلى اساليب يمكن لليسار ان يضرب بمثلها . ولعل تعسكر قطاعات من اليسار العربي في السنوات الأخيرة هو الذي أهدر الكثير من امكاناته وجعله معرضاً للانقطاع عن الجماهير وممانتها ، حتى كاد اليسار يتساوى في كثير من مسالكه مع القوى التي قاومها وتغلب عليها .

من هنا نجد كيف ان المحاولة الانتقالية التي قام بها هاشم العطا ورفاقه الضباط اليساريون الشيوعيون وقعت في المنزلق الذي وقع فيه قبلهم عدد من الضباط اليساريين العرب في عدد من الاقطار العربية . فلما ان انتماءاتهم الحزبية لم تجعلهم خاضعين لانضباطية الحزب الشيوعي ، وهذا خطأ مسلكي بالإضافة إلى الخطأ العقائدي ، واما ان يكون الحزب الشيوعي السوداني دفعهم أو امرهم بالتحرك الانقلابي ، فيكون الحزب قد وقع في خطأ تاريخي كبير وانحرف عن المهمات الثورية الموكولة اليه او التي اوكلها الي نفسه .

لعل قربنا من الاحداث لا يمكننا من تقرير هذا الموضوع برغم ان استنتاجنا الاولي — والقابل للتعديل في حال توافر ادلة جديدة او مغايرة — هو ان موافقة الحزب الشيوعي السوداني اللاحقة للانقلاب لا تشكل دليلاً قاطعاً على مشاركة في التخطيط او في الاعداد السابق له ، ويتراءى لنا ان التسرع في المحاكمة والاعداد كان نتيجة اكتشاف الحكم في السودان لهذه الحقيقة . من هنا يحق لنا ان نشارك فؤاد مطر في تساؤله عن الاسباب التي دفعت بالنظام في السودان الى ان يجري محاكمة طويلة لرولف شتاينر قائد حركة المرتزة في الجنوب وان يلغى جوهرها محاكمة عبد الخالق محجوب والشفيق احمد الشيخ ، برغم انتماءاتهما الحزبية وما لهما من رصيد ضخم لدى الجماهير السودانية الواسعة ، وبرغم ارتباط اسميهما بتاريخ النضال الوطني

السوداني المعاصر .

وإذا كان قد بدأ — وقد بدأ بالفعل — ان الحزب الشيوعي السوداني والحركة النقابية قد وافقا على انقلاب العطا وايداه ، فلانهما اعتبرا الوضع الذي نشأ وضعا متقدما عن الوضع السابق من حيث تصور الحزب الشيوعي للنظام في السودان ، وكما تبين من خلال قراءة ملف الوثائق التحليلية للحزب . لكن هذا بحد ذاته لا يشكل مدخلا للنظام السوداني بعد افضاله انقلاب هاشم العطا لكي ينقض على الحزب وقادته بثل الشراسة التي حصلت نظرا الى ان محاذير الحزب حيال النظام كانت واضحة وصريحة وبالتالي كان في استطاعة النظام بعد عودة الرئيس النيميري ان يحدد محاذيره ويعملها اما بمحاكمات سليمة او من خلال التنظيم السياسي للنظام .

ثانياً : لقد وضح اثناء الاحداث السريعة التي تتابعت في السودان اثر انقلاب هاشم العطا وبعد عودة الرئيس جعفر النيميري مدى ترابط التطورات في قطر عربي بالواقع العربي العام . وانه رغم انفصال الكيانات العربية من حيث الشكل والسيادة ورغم امعان قيادات عربية في تغذية النزعات الانفصالية في الوطن العربي وترسيخها فان وحدة المصير العربي والتداخل العضوي بين الاقطار العربية يبقيان افعال وأقدر على التأثير والتأثر من النزاعات والتغيرات المتعلقة بشكليات السيادة والتميز والاستقلالية الكاملة . المؤلم في هذا الشأن هو احساسنا بهذه الوحدة القومية الذي يتبلور بصدق اوضح في التجارب المساوية التي يعيشها وطننا العربي بدلا من ان يكون بنفس الصديق وعمق الاحساس في التخطيط والعمل لتلافي هذه المآسي أو من حيث التنسيق الملزم الدؤوب الذي تحتمه تحديات التحول والبناء في مجتمع المصير الواحد — اي الوطن العربي .

واكثر من ذلك ، فقد بينت أحداث السودان الاليمة ، ومن قبلها أحداث الية ومساوية كثيرة ، افتقارنا المخيف إلى المؤسسات القادرة على ان تمتص حدة الازمات وتضمن استمرارية الحقوق الأساسية للمواطن وللوطن وبالتالي ان تكون الاقنية السليمة للمجهودات التي تمكننا من التوجه الجاد نحو الاهداف المعلنة التي نتوق ، بمستويات مختلفة ، التي تحقيقها . ان وجود هذه المؤسسات هو الذي يبقيني المجتمع بمنأى عن العشوائية في التفكير والتخطيط والسلوك التي ميزت الكثير من افعالنا وانفعالاتنا وأدت إلى الكثير من الآمال المفلوطة ، وبالضرورة إلى التمزق والضياع من جراء كشف مغالطات الذين حركوا هذه الآمال .

ثالثا : ان طبيعة مواجهتنا المصيرية مع التحديات القائمة من جراء مطامع اسرائيل وعدوانيتها وارتباط اهدافها مع اهداف المخطط الاميركي في المنطقة بالاضافة الى التحديات التي يوجدتها واقع التخلف الاقتصادي والاجتماعي والتي نواجهها كجزء من العالم الثالث ، والتي تلح علينا كي نتصدى لها بوضوح وبخزم ، توضح ضرورة اولوية ادراكنا ان تحركنا على اى مستوى له تفاعلات على المستويات الدولية والعالمية . ومهما حاولنا ان نؤكد استقلاليتنا فلم يعد في عالمنا المعاصر اطلاقية في الاستقلال خاصة ان ما نواجهه يتطلب المزيد من التعامل والتعاطي في المجالات العالمية . لكن بمقدار ما نتأثر بالعالم كذلك فنحن نؤثر في واقع العالم ومعادلاته . وبذلك تصبح مسؤوليتنا اضعف ويصبح من الضروري ان تكون مواقفنا وتصاريحنا مدروسة ومعللة ومستوعبة للحقائق القائمة والمستجدة في العالم .

من هنا فان احداث السودان الالية اظهرت مدى احتمالات التصدع في المعادلات القائمة بيننا وبين الاتحاد السوفياتي ، ومدى ضرورة تلافى هذا التصدع والرجوع الى قدرات العرب لعودة الالتحام والثقة خاصة في المرحلة الدقيقة التي نمر بها في مواجهتنا مع عدو مصيرنا - اسرائيل .

اما ان يعمل الحكم في السودان على ايجاد « غطاء يساري » عالمي من خلال الانفتاح المتسرع على الصين - رغم موافقتنا وايماننا بضرورة تصعيد العلاقات العربية مع الصين الشمبية وتكثيفها - فانه يحرف الموقع العربي من كونه موقعا موحدا بين اطراف المعسكر المناهض للاستعمار والصهيونية وقطاعاته بدلا من ان يكون موقعا من مواقع استقلال الثاقصات داخل المعسكر الاشتراكي العالمي وبالتالي موقع اضعاف واهدان لقدراتنا الحقيقية والاساسية في المجابهات العدائية التي تهدد كياننا ومستقبلنا ومصيرنا .

هذا يعني - كما اثبتت احداث السودان وردود فعلها - ان على الذين هم في مواقع المسؤولية والتوجيه ان يكونوا اكثر احاطة بهذا الترابط بين تصرفاتنا ومسالكنا على المستويات القطرية والقومية بالمقتضيات والحقائق الدولية الثابتة منها والمتغيرة .

ان كتاب فؤاد مطر مساهمة جادة ومهمة في تمكيننا من ان نحقق مستوى مطلوبا من الاحاطة الجادة والمسؤولة .
بيروت ١٤ آب (اغسطس) ١٩٧١ .

كلوهيس مقصود